



الإبداع الفني والذكاء الاصطناعي أية علاقة

جهيدة اعصافرو

طالبة دكتوراه بجامعة القاضي عياض

المغرب

لا شك أن العالم لم يتحول شيئا فشيئا إلى قرية صغيرة، دروبها ممهدة بتقنيات الاتصالات الحديثة، وتدفق المعلومات، وحرية التجارة، لكن هذه القرية العالمية المتصلة دروبها، أو التي في طريقها لتعميم التواصل تحمل في بذورها جنين في رحمها... هنا يحضرنا قول ما كس فيبر: "ذات يوم، في الجزم بأن عالم الغد سيكون تقنيا بامتياز"¹ فعلا لقد تغيرت حياتنا بعد مجيء التقنيات الرقمية، فقد عزت كل مناحي الحياة، لدرجة أنها ابتكرت عالما رقميا مستقلا... هذه التقنيات غزت عالمنا الحميمي مع العلم إن كل البدايات حبلية بالتوقعات. والمتوقع أن الظاهرة الإنسانية خاصيتها الجميلة: هي الابداع كسمة إنسانية فريدة تقوم على الابتكار والتخيل، والقدرة على تجاوز المألوف، فالعالم اليوم يخوض حرب المعرفة بتجلياتها التقنية، والتكنولوجية ذلك أن العالم يزداد بونا وشساعة بين دول تمتلك كل الإمكانيات التكنولوجية، وما يترتب عنها من تسليط وتحكم...

وطبيعي اليوم أن نعي مع الغرب أن الحرب أضحت توغلا تكنولوجيا، عبر هذا الزحف الإعلامي المرتبط بوسائل اجتماعية من فيسبوك، وتويتر، انستغرام سناب شات... وغير ذلك تمكنت هذه المواقع من تخطي جدار الحميميات، والحياة الخاصة التي يتقاسمها الناس فيما بينهم، فقد أزاحت هذه المواقع كل ما يحافظ على إنسانية الإنسان... كل هذا التطور أفضى إلى صناعة معرفة هشة مخلة ومبتذلة، تكرر الغباء والتجهيل وتعليب الإنسان، وتسليعه بمحاربة المعرفة التي تبني الإنسان، وتجعله قادرا على مواجهة تبدلات الحياة، مع الإسهام في ثورة تقنية نجم عنها معرفة حضارية، إضافة إلى أن هذه الشبكة العنكبوتية فضاء للتعبير الجيد، والردىء كل ما يعرض فيها من أفكار وتصورات، ورؤى تختلف باختلاف الأمم والشعوب، والأهواء والرغبات، لكن الكل يلتقي في نقطة واحدة تكمن في العيش الافتراضي، صحيح أن التكنولوجيا الحديثة أتاحت الإنسان فرصا عديدة للانفتاح على الآخر من أجل الاطلاع على كل المستجدات في جميع المجالات، صارت الإنترنت ذاكرة الإنسان، وعن طريقها يتم الوصول بشكل ميسر، وسهل للغاية لكن يبقى الإبداع ظاهرة لصيقة بالإنسان منذ بداية تفكيره ووجوده في هذا الكون، فقد خرج من الطبيعة إلى الثقافة ومن الأصوات للغة، ومن القطيع إلى الجماعة الإنسانية متسلحا بأدواته الحجرية، وبالأسماء التي يطلقها على كل ما يحيط به فينقله من الغفلية إلى الوجود، وبذلك عرف أهمية الخيال والتمثيل وخطورتها، فبواسطتها فتح الإنسان معنى لنفسه ومعاني لكل ما يحيط به، فلم يكن الإنسان البدائي يحمي بالمغارة والنار فقط فدرعه الأمانة كانت دوما تكمن في الخيال، تلك القدرة التي يصوغ بها عالما، كل شيء فيه يذهله ويخيفه ويعذبه فبالخيال روض الإنسان كل هذا... أسر الإنسان العالم في متخيله وشكله كما شاء. فالتمثيل هو القدرة الجبارة التي امتلكها الإنسان لينتصر على نفسه، هو الأداة التي مكنته من فتح مسارات، ودروب في جدار جهله، ملكة جعلت كل شيء ممكنا ومتاحا لكل هذا كان الإرث العظيم الذي تناقلته البشرية،

¹ - نقلا عن مجلة العربي العدد 734 سنة 2020 لخالد صلاح حنفي.



ليس هو أحجار المعابد ومآثر الملوك ومنجزات الدول، بل هبات المتخيل الإنساني التي سكنت أبيات ملحتمه، أو قصيدة، وتفاصيل تمثال أو لوحة، وأحداث حكاية أو رواية أو أحداث موسيقية إنه: الإرث الذي تجد فيه الإنسانية جمعاء نفسها، وتتعرف بداخله على مخاوفها وأحلامها وتطلعاتها، ومآسيها إذن لا تقتسم البشرية حقلا إلا المتخيل وفواكه الخيال. إذن أصل الإبداع الخيال الإنساني: وهو ظاهرة لصيقة به. منذ بداية تفكير ووجوده في هذا الكون حيث كما سبق الذكر، بدايته صوب العالم: الصوت والكلمة والإشارة واللون كلها تتلاءم من أجل إنتاج عمل كله شذرات خيالية. تحتوي صدقية المشاعر بكل تفاصيل عفويتها، وهنا يكون الإنسان صادقا في إبداعه. لكن اليوم أصبح الإبداع متعايشا حالة التشظي بين الورقي، والرقمي فقد ضيق مجاله وحددت حرته، أمام هذه الوسائل المادية الحديثة، التي ولدتها ثقافة تكنولوجية، ونعتت بالذكاء الاصطناعي: كظاهرة ثقافية يفرضها التطور العلمي، وهي ظاهرة حاضرة بدرجات مختلفة في المجتمعات، وتلعب دورا أساسيا في بلورة نظرة الإنسان، إلى العالم وحضوره فيه كما أن علاقتها بالثقافة بشكل عام هي: علاقة تأثير وتأثر، ومما لا شك فيه أن شبكة الأنترنت تشكل عنصر جذب كبير نظرا لمجانيتها المحتوى.

فالإنسان اليوم وجد نفسه محاصرا بين هذا التطور التكنولوجي الذي أضحى واقعا مفروضا، وآلياته الصناعية التي بدت تغزو خيال الإنسان، في بعده الإيجابي حيث أصبح بمقدور الباحث، أن يدخل الشبكة إلى كبريات المكتبات في العالم، وأن يفيد من الكتب الرقمية، إذ تكلفه نقرة على الحاسوب كي يصبح بمتناوله... كما أصبح بالإمكان القيام بزيارات افتراضية إلى المتاحف، والمعارض للاطلاع على ما تكتنزه من إبداعات كما أن هذه الوسائل الاتصالية، وفي بعدها العميق المرتبط بالذكاء الاصطناعي أصبحت تنشر الثقافة بأشكالها المتعددة، على نطاق واسع وتخرجها من حيز النخبوية، لتضعها بمتناول الجمهور العريض، وهي وسيلة متاحة للمبدعين في شتى المجالات للتعريف بإنجازاتهم، والتفاعل مع المتلقي كما هو حاصل في الرواية الفسبوكية: وهي نوع جديد ظهر في الساحة الأدبية سيشترك فيه الكاتب مع قرائه، وخير مثال يحيرني في البحث عن هذه العلاقة بين الإبداع الفني والذكاء الاصطناعي: هو المحاوراة التي تتم مع الذكاء الاصطناعي عبر إعطائه حبكة جاهزة تتضمن أحداثا ما، فيولد لذلك بعدا تخياليا، تسبح فيه هذه الشخصيات داخل مسار سردي... لكن هل هذا التدخل المساعد في نسج هذا الإبداع السردي أو المسرحي أو الحكائي نابع من صميم وجداني عاطفي، مطبوع على الفطرة التخيلية لدى السارد: الواقع وليس الافتراض أم أننا سنسقط في تخيل تطبيعي الذي يقتل روح الإبداع الصادقة؟ هكذا نقيس كل الإبداعات، من كتابات وأصوات موسيقية... فمضى نقيس حدود هذا التدخل؟ ألا نقول بأن الذكاء الاصطناعي يشوش على خيال المبدع ويوجهه، وبالتالي يجعله يفقد مصداقيته، وعفويته؟

وكيف نعزل حدود التخيل بين الطبيعي، والاصطناعي؟ وكيف يمكن أن نقرأ هذه العلاقة اليوم في بداية اكتشاف خبايا هذا الذكاء، صعب التنبؤ بالمستقبل لأنه لا يخلو من مشاكل، وأن لحظة الانبهار لهذا الذكاء لا زال في طور البدايات أم أن القول سيكون هذا الذكاء الاصطناعي نافع لبعض الإبداعات المرتبطة بتصاميم الهندسة المعمارية، النافعة في بعض الإبداعات ليكون مساعدا لها بالقوة في حين لا يمكنه أن ينجح في إبداعات خاصة بالتجارب الفردية، التي تشتغل على ما هو حميمي، وذاتي يغمرها البعد الوجداني، والنفسي لأنه لا شك أن الذكاء الاصطناعي سيشوش على خيال الإنسان، ويوجهه وبالتالي المبدع سيفقد روحه الإبداعية الجميلة في عفوية مخيلها، وطقوسها الإبداعية كتجربة شعرية أو موسيقية أو قصصية أو روائية أو مسرحية فدرجة إبداعها تكمن في عفوية شذرات الخيال.

الذي يصدر بعفوية صادقة تجعل المتلقي منفعا تقربا من كل ما هو مصطنع لذلك لا يمكن الاعتماد على نسيج الذكاء في الإبداعات الحميمية، المرتبطة بالوجدان العاطفي والنفسي. فكيف يمكننا أن نحمي هذا الإبداع من هذا الذكاء الاصطناعي؟ وهل هذا التدخل بالذكاء لن يكون مكررا في جميع الإبداعات العالمية، باعتبار إن الذكاء الاصطناعي هو قاسم مشترك بين جميع المبدعين توحدتهم معرفة الذكاء الاصطناعي.

إذن حسب وجهة نظري: لا يمكننا أن نذهب بعيدا أو نطرح سؤالا جوهريا يتعلق ب هل الذكاء الاصطناعي يشكل خطرا على الإبداع؟



نقول نعم. وفي نظري يجب أن تكون الاستفادة من الذكاء الاصطناعي، كبعد ثقافي مساعد في تقنيات هامشية للإبداع، لكن يجب حده في هذا المنحى، وترك حرية المبدع عبر مخياله، يعطينا عملا جذابا، ومثيرا نابعا من صدق تجربته الخاصة. هنا يظل الإبداع نصا ثقافيا خالدا يثير جدل القراءة، ويعد رأسمالا رمزيا لأننا نعتبره تراثا معرفيا، وجماليه فيه قيم يستطيع تغيير الإنسان.

هكذا يمكن القول بأن العالم في هذه اللحظة يتغير ويدخل مسارا جديدا أفقا مغايرا سيبتر الكثير من الأسئلة والإشكالات المتعلقة بالمجهول الذي ينتظر الإنسانية قاطبة، وما دام نحن نعي أن عالمنا يخوض حربا معرفية بتجلياتها التقنية والتكنولوجية ويكون فيها الذكاء الاصطناعي حاصلا على حصة الأسد لذلك كيف ينبغي لنا أن نحمي تراثنا الثقافي من هذا الغول التكنولوجي، واعين أننا نملك تراثا ما ضويا صافيا وصادقا، لكن ما نتحدث عنه هو ما يرتبط بالإنتاج الأدبي الحاضر، ومما يكتبه شبابنا اليوم خصوصا وأنهم يتداولون ثقافة الذكاء الاصطناعي ونعتقد أن هذا الأمر هو أحد أخطر التحديات التي تواجه الإبداع الراهن في علاقته بالذكاء الاصطناعي حيث نلاحظ أن حدود الاستفادة يجب أن تكون ضئيلة وشبه منعدمة خصوصا في المسار السردى والشعري والمسرحي بينما يكون أن يوظف الذكاء الاصطناعي في بقية الإبداعات مثلا كالموسيقى أو الرسم حيث يمكن أن يكون قيمة مضافة أي يستفيد منها المبدع من حركية الأصوات والألوان، والإضافات التي يضيفها له الذكاء الاصطناعي، وهنا يسمح بالتوظيف حيث يكون الذكاء الاصطناعي عاملا مساعدا في إضافة إبداعات أخرى، ألا يمكن أو ربما كان اختيارنا بخصوص فن الموسيقى والرسم باعتبارها تقنيات ملموسة تحتاج إلى صناعة ذكائية لكن ما يبدو صعبا هو التحكم في سلطة مخيال المبدع، وترتبط بعالم السرديات، وهنا تكمن الصعوبة فمثلا لو أردنا كتابة السيرة الذاتية لشخص ما فكيف يمكن السبيل إلى الالتجاء للذكاء الاصطناعي؟

ألا يمكن أن نقول أن هذا الأخير سيكون عنصر مشوشا على هذا الإبداع بحيث سيقفل صدقية الإبداع لأن ذات السارد ستتدخل فيه تصورات مخيالية متفاوتة التقدير، مع ما عاشه في حياته الخاصة، وهذا يشكل أزمة في سردية السيرة الذاتية؟

مما يعني أن الذكاء الاصطناعي قد فشل في إعطاء المساعدة عبر المخيال لنجاح هذه السيرة الذاتية؟

وهذا ما يجعلني أكتشف أخطر تحدي سيواجهه الإبداع في الألفية الجديدة. كما أننا ليس لنا خيار للتحكم في البعد التخيلي كأن نتحكم فيه من أجل غلبة الإيجابي وتفادي السلبي، ينبغي لنا أن نحدد الزيادة المتنامية للمعلومات التي تسبب الارتباك والاضطراب، والزرعة المتزايدة إلى إساءة استخدام المعلومات، وقنوات المعلومات التي تحجب أماكن صنع القرار في رأي نحن بحاجة ماسة إلى مسائل حاسمة، ورؤى مضادة لضمان ألا تتحول تكنولوجيا المعلومات إلى أسلحة لهو وتترجم خداع ودمار شامل.

ألا يمكن أن نقول بأن هذا الذكاء الاصطناعي سيمنع لنا أحداثا مكررة عند الكل مما يجعلنا منمطين عبر شيء نسميه إبداعا وهو لا يمت إلى الإبداع بصله لأنه قد يتكرر في أوطان أخرى.

وألا يمكن أن نطرح سؤالا أعمق يرتبط بالذكاء الاصطناعي يرتبط بتحديد درجة التأثير في الإبداع فهل هو عامل مساعد أم مشوشا على الإبداع؟

فالثقافة تتجلى في النهاية بالنصوص والخطابات وبالمؤسسات والمشروعات أو بالتصرفات والممارسات... إذا كان المقصود بالثقافة النصوص، فنحن نرى أن لا خوف عليها من شيء، إذ أنها روائع وآثار باقية لا أحد يستقصي عليها ولا تدخل للذكاء الاصطناعي في زرععتها أو إعادة اخراجها باعتبارها رأسمال رمزي علينا أن نحسن صرفه وتحويله إلى قيم معرفية وجمالية لكن الخوف يأتي من النصوص المضافة والمبدعة حاليا لدى الشباب في زمن الذكاء الاصطناعي لأن شبابنا يتعاطاه كفاعل مساعد فهل يستدعي منا غلبة هذا الإبداع الجديد، مع وضع لجنة تستقصي النصوص الإبداعية الجديدة لمعرفة هويتها اتجاه الذكاء الاصطناعي؟

الحل في نظري هو أنه لا بد من إعادة التفكير في نظام الذكاء الاصطناعي لكشف حدود الاستفادة منه خوفا من أن نجد نسخا مكررة في هذا الإبداع وهناك يصبح الذكاء الاصطناعي عنصرا مشوشا على الإبداع. باعتبار أن هذا الذكاء الاصطناعي متحايل يقدم نفسه



كمساعد للمبدع. لكنه يتعامل مع الأفكار لا كأصول ونماذج ولا كأفانين ومقدسات بل بوصفها شبكات تحويلية مما يزداد تخوفنا من أن تكون نفس الأحداث والوقائع تكمن في إبداعات أخرى في عالم آخر. مع العلم أن الابداع ظاهرة متفردة ومختلفة ولا يسمح للإبداع أن يكون نسخة واحدة. وهكذا نقول يبقى السبيل هو الابداع كثقافة حتى لا يكون فريسة للغزو، ومن طرف هذا الذكاء الاصطناعي من أجل قتل الابداع الذاتي الذي يكشف خصوصية محلية أو وطنية أو عالمية فرغم أن الذكاء الاصطناعي واقع معروض ويشكل وسيلة فعالة للتلاقح، والحوار بين الثقافات، كما أن وسائل التواصل الحديثة تفتح المجال أمام الأفراد للتعرف على أشخاص.

إن من استبصار العلائق المتواجدة بين الذكاء الاصطناعي، والإبداع عملية صعبة وصعوبتها تكمن في كون العلاقة لا تسير بشكل ميكانيكي لأن الابداع يحث عن الانفلات والذكاء يسير وراء ضبط هذا الانفلات، لذلك تكمن العلاقة في لعبة لغوية بين المبتدأ والخبر فإذا كان الابداع مبتدأ فالذكاء خبر، لكن لا يمكن أن يتدخل الذكاء في حياة هذا الابتداء خوفا من قتل معنويته، فالإبداع مشاكس وحر في ترتيب أحداثه غير خياله المستقل لأن يعطينا إنتاجا أدبيا عفويا وحرًا بينما الذكاء الاصطناعي يقرر بالمبدع ويقدم نفسه كعنصر مساعد وناعم في تقديم الأحداث بشكل مجاني من أجل أن يورط في التوجيه ويجوله كأداة تابعة بينما المبدع الحقيقي لا يهتم بهذا الاغراء بل يركز على حرية خياله من أجل أن يبدع نصا صادقا تفعل فيه شرايين تخيلاته وما يواجهه من أحداث، وما يعيشه من ظروف، هكذا نقول مع التعليم الذكاء الاصطناعي أن عملية المشاعر والاحاسيس التي ترافق النص الابداعي لا تدخل لديك فيها باعتبار أننا نقرأ الابداع ونعي مع المبدع درجة الحرارة الانفعالية لمعاناته بشكل طبيعي وصادق.

بينما إذا أسقطه الذكاء الاصطناعي في لعبته فإنه مع الأسف سيكون العمل ميكانيكيا وفارغا من الصدق والمصادقية، وبالتالي ما يجعلنا نعشق الابداع الأدبي فهو ترجمة خبايا النفس الإنسانية التي ييوج بها المبدع ويحاول أن يسقطنا في حياته التي هي حياتنا اعتمادا على احتمال تشارك في أفكارهم الباطنة.²

وختاما يمكن القول أن التطور التكنولوجي أصبح واقفا مفروضا على المجتمعات، وهو يسير بسرعة هائلة لذلك تجدر الاستفادة منه شريطة أن يحولنا هذا الذكاء الاصطناعي إلى دميات تترجم ما يعليه علينا، ويجعلنا نسخة مكررة عن أنفسنا وبالتالي يجمد خيالنا ويسطحه ويقتل صدقنا ومصادقيتنا، وهنا يكمن أثره السلبي في إبداعنا لذلك ضرورة حماية الابداع الصادق من هواجس هذا الذكاء الاصطناعي حماية لمخيلنا الابداعي وتفرد داخل مسار زمني ومكاني وإنساني لذلك يجب أن نحاط من الغزو الألي، وألا تكون فريسة له لأنه سيقضي على الابداع من الداخل لذلك تجدر الإشارة، أن نعد أداة للاستفادة، ليس إلا دون أن يتوغل في مسار أحاسيس المبدع ليترك مجال الابداع متفردا على الاختلاف، وهذه هي طبيعة الكائن البشري، فلا يسعنا إلا تفكير في إعادة تفكيك هذه العلاقة بين الذكاء الاصطناعي والإبداع من أجل إعادة صياغتها في حدود الاستفادة، دون المساس بخيال المبدع... كذلك لا ترغب في أن تؤسس مبدعين يعتمدون في إبداعهم على هذا الذكاء كي لا تقتل فيهم روح الابداع، باعتباره امتدادا لمعاناة ذاتية يعيشها المبدع، ورغم هذا الذكاء الاصطناعي كشبكة يعد عنصر جذب بامتياز نظرا لمجانية محتواه، ورغم أنه وسيلة فعالة للتلاقح، والحوار بين الثقافات حيث ما يثير فيه الفضول: هو ظاهرة التعرف على حياة أشخاص يختلفون عن هويتنا الثقافية، على أساس أن غاية الذكاء هي هدم الحواجز عبر مطاردة الخوف من الآخر المختلف، إلا أن الظاهرة الابداعية في عمقها تعتمد التأصيل بحكم التجربة، وعمقها في التعبير عن معاناة تترجم بعدا عاطفيا ونفسيا يتعلق الأمر بالأحاسيس والمشاعر التي لا يستطيع الذكاء الاصطناعي عبورها وهذا ما يعطي للإنسان التوازن الطبيعي في استمرار الحياة، لأنه لا قدر القدر أن يتطور الذكاء ليلج كئنه الإنسان داخلها لاستطاع أن يتحكم سلطويا في أحاسيسه، وبذلك تصبح له القدرة على امتلاك دلالة الابداع ويصبح فيها الإنسان تابع وخاضع وهذا ما يصل إليه الذكاء الاصطناعي بحكم أن نتصوره يرتبط فقط بالأشكال فمثلا قد يصور للمبدع الحبكة ويجعله يفهم تطور دلالة الحدث داخل بناء سردي، مع توزيع الشخصيات في خطاب له شغف لغوي مثير قد يعيشه

² — نقلا عن مجلة العربي العدد 487 يونيو 1999 مقال حدود المعرفة لمحمد حديدي.



القارئ، لكن بعد الاحساس بالمشاعر لا يستطيع أن يتعمق في الذكاء بل يرتبط باستقلالية السارد في كل عمل إبداعي كان مسرحاً أو قصة أو شعراً أو رواية...

وهنا تبقى الرسائل التكنولوجية الحديثة ومنها الذكاء الاصطناعي مجرد أداة حيادية قد تستخدم بطريقة إيجابية تفيد تطور العمل الإبداعي كسهولة الحصول على المعلومات تسهيل البحث لكن يجب أن تبقى للمبدع استقلاليته حتى لا ينقلب عنه ويتحول إلى غول يؤدج الأحداث والشخصيات ويقتل لنا السارد في روحه الإبداعية، وإذا كان هذا التطور التكنولوجي للذكاء منظوراً وأصبح واقعاً مفروضاً على المجتمعات، لكونه يسير بسرعة هائلة ما يحتم علينا الاستفادة منه في بعض المجالات التقنية دون التعمق فيه أثناء الكتابة الإبداعية باعتبارها فرض عين ترتبط بخصوصية وحميمية المبدع، ومن ثم نؤسس لهذا العمل نصوصاً خالداً، بل نابعة من روح المبدع.



المراجع والمصادر

- مارك كوكليبرج: أخلاقيات الذكاء الاصطناعي ترجمة هبة عبد العزيز غانم مراجعة هبة عبد المولى أحمد.
- مجاهد ناصر الجير: أستاذ الذكاء الاصطناعي المشارك، رئيس الجامعة التخصصية الحديثة.
- نقلا عن مجلة العربي العدد 734 سنة 2020 لخالد صلاح حنفي.
- نقلا عن مجلة العربي العدد 487 يونيو 1999 مقال حدود المعرفة لمحمد حديدي.